

إنسانية المعاني والألفاظ عند حازم القرطاجني

علي باقر طاهري نيا^١، ابوبكر محمودي^{٢*}، نعيم رحمانى^٣

١. أستاذ، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران

٢ و٣. طالب دكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران

(تاريخ الاستلام: ٢٠١٦/١٢/٥؛ تاريخ القبول: ٢٠١٧/٣/١١)

الملخص

قد كان موضوع اللفظ والمعنى من أهم الموضوعات التي تطرق إليها العلماء والأدباء منذ القرون الأولى إلى يومنا الحالي، وسبر غير واحد منهم ميدان هذه المسألة المثيرة للجدل والنقاش، وسلخوا مسالك مختلفة ومتناقضة أحياناً، وما من شك أن للألفاظ والمعاني حياتها، فمنها ما تموت عبر الزمان ومنها ما تبقى على مر العصور، ومنها ما يطرأ عليها التبدل وتظهر في ثوب جديد! فلها - كما للإنسان - حياة، ولها شأنها ومكانتها في المجتمع. والقرطاجني يرى أن اللفظ والمعنى يكملان بعضهما البعض، فهما وجهان لعملة واحدة لا عمل لواحد دون الآخر! ويعتقد أن المعاني لو صبّت في قالب الألفاظ الجميلة والخلاصة لتضاعف تأثيرها على المخاطب، هذا وأن القرطاجني يخلع على كثير من المعاني والألفاظ صفات إنسانية وكأنه يرى في المعاني والألفاظ مجتمعا بشريا ينحو بتعاونه نحو التقدم والرقي، ويشل عن حركته وتقدمه دون التعاون والدينامية. وما حصلنا عليه خلال دراسة هذا الموضوع خلال المقال وضمن استخدام المنهج التوصيفي - التحليلي أن القرطاجني يخلع على كثير من المعاني والألفاظ معانٍ بشرية، على غرار ما نرى عن القبض والبسط والفطرية ووجود بعض الصفات البشرية في الألفاظ والمعاني كالخساسة والردالة والقباحة والشناعة والحسن و... .

الكلمات الرئيسية

حازم القرطاجني، إنسانية اللفظ، إنسانية المعنى، منهج البلاغ، النقد الأدبي.

مقدمة

ما من شك أن اللفظ والمعنى قد احتلّا منذ القديم إلى يومنا الراهن مكانة مرموقة كبيرة في الأدب العربي، وذهب النقاد والأدباء في ذلك مذاهب، فمنهم من قال إن الأصل هو اللفظ دون المعنى ومنهم من قال إن اللفظ يتمحور حول المعنى، فهو خادم له، غير أن هناك من يرى أنه لا فرق بين المعنى واللفظ، فهما ينبعان من معين واحد لا ينضب، والآخرون يرون أن اللفظ والمعنى يكملان بعضهما البعض. وحازم القرطاجني ممن يرى في المعنى روحا وفي اللفظ جسدا ينطلق بفعل بهذا الروح لتسمو به إلى آفاق الخيال! فكان يقول: يجب أن يكون اللفظ طبقا للمعنى تابعا له جارية العبارة من جميع أنحاءها علي أوضح مناهج البيان والفصاحة! (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٢٣) فاللفظ العليّ عند حازم يتفرّع من المعاني السامية، بحيث لو كانت المعاني رديئة نحيلة يتبعها اللفظ في ذلك فيصبح الرديء النحيل! وعلى العكس من ذلك فلو كانت المعاني شامخة كريمة فيصبح اللفظ تبعا لها شامخا كريما! وكذلك لو اتصفت المعاني بالصفات الإنسانية أو اصطبغت بصبغتها سواء أكانت الصفات رفيعة أم رذيلة، لاتبعتها الألفاظ وصارت المعاني نفسها وكأنها لا تختلف عنها في شيء منها!.

أسئلة البحث

التساؤلات التي تطفو الى السطح لدى المتلقي كالتالي:

- ماهو المراد من إنسانية المعاني والألفاظ لدى القرطاجني؟
 - كيف تبلورت إنسانية المعاني والألفاظ في أعمال حازم القرطاجني؟
 - ماهي الأسباب التي دفعت بحازم لكي يُصِغ علي المعاني والألفاظ صفات إنسانية؟
- الإجابة علي التساؤلات المذكورة أعلاه هي ما يسعى الكُتّاب أن يحصلوا عليها خلال المقال.

خلفية البحث

قد أطلق العلماء والكتّاب والنقاد منذ القدم عنان الكلام في موضوع اللفظ والمعنى، وفي اتصافهما بالمعاني البشرية والإنسانية، وخاضوا في أغواره وسبروا أعماقه، فالجاحظ أقدم من تناول هذا الموضوع في كتابه "البيان والتبيين" وكذلك في رسائله، ثم صار علي الدرب غيره من كبار العلماء كإبن رشيقي في "عمدة" وابن قتيبه في "الشعر والشعراء" وعبدالقاهر الجرجاني في "دلائل الإعجاز" و"أسرار البلاغة" وابن سينا الفيلسوف والطبيب الإيراني الفحل في كل من

"الشفاف" و"التنبيه والإشارات" والباقلاني والقاضي عبد الجبار وغيرهم! غير أنه اختلفت وتضاربت أقوالهم بهذا الصدد وتطرقَّ غير واحد من الدارسين والباحثين المعاصرين الي نظريات هؤلاء العلماء وقاموا بنشرها وتبيينها، كما شرحوا آراء حازم القرطاجني فيما يخص باللفظ والمعني واللغة والنقد، فعلي سبيل المثال صنّف الأستاذ سعد مصلوح كتاباً قيماً حول نظرية المحاكاة والتخييل عند حازم بعنوان: "حازم القرطاجني ونظرية المحاكاة والتخييل في الشعر" وقامت منشورات عالم الكتب بنشر هذا الكتاب منذ سنة ١٩٨٠، كما نشر نجم مجيد علي مهدي مقالا في مجلة كلية التربية الأساسية في عددها السابعين بسنة ٢٠١١ بجامعة المستنصرية يحمل عنوان: "الجهود النقدية لحازم في كتابه منهاج البلغاء وسراج الأدباء" و...، الآن هذه المحاولاتلم تتناول موضوع إنسانية اللفظ والمعني عند حازم ولما استطعنا أن نحصل على مصادر أو مقالات أو كتب كانت قد تطرقت إلى شيء من ذلك فكأن هذا الموضوع أرض بكر لم تمس بعد! وكلنا أمل أن نملاً هذا الفراغ خلال المقال الذي بين أيديكم. جدير بالذكر أنّ فصل الأول من كتاب المنهاج والذي يضم بين طياته موضوع اللفظ ما وصلنا فيا حبذا لو كان يصلنا هذا الفصل لكي نسبر في أغوار الموضوع بدقة وتفصيل مزيدين.

منهج البحث:

وأما المنهجية التي أتبعناها خلال البحث فهي منهجية توصيفية تحليلية بحيث قمنا بداية بذكر آراء القدماء فيما يتعلق باللفظ والمعني ثم عقّبنا آراءهم برأي القرطاجني ثم تفرّدنا قسماً خاصاً من المقال لتلك المعاني والألفاظ التي تبلورت فيها الصفات الإنسانية وقمنا بتحليلها وتفسيرها وبيّنا تأثير ابن سينا عليه على وجه الخصوص وعلى فكرته.

عن اللفظ والمعني:

فقد كان موضوع اللفظ والمعني موضع جدل العلماء والنقاد منذ القديم الي أيامنا الحديثة وذهبوا في ذلك مذاهب مختلفة ومتناقضة أحياناً، فتستطيع أن نلخص تلك المذاهب في الأربعة التالية علي وجه من الإيجاز والاقتضاب:

المذهب الأول

كان يرى أتباع هذا المذهب أن الأصل الأصيل والمحور الرئيس هو اللفظ دون المعني، وذلك لأنهم كانوا يرون أن المعاني في متناول الجميع، فيتطرق إليها الأمي والعالم والجاهل

والشاعر والكاتب والناثر و.... والجاحظ في طبيعة هذا الفريق ويقول: «والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي والبدوي والقروي وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخيّر اللفظ وسهولة المخرج وفي صحة الطبع وجودة السبك فإنما الشعر صناعة وضرب من النسج وجنس من التصوير» (الجاحظ، ١٩٦٩، ج٣: ١٣١-١٣٢).

وأبوهلال العسكري هو من كبار العلماء الذين حذا حذو الجاحظ فيما ذهب اليه من فكر ومعتقد، ويعتقد أن البلاغة هي تخيّر اللفظ وولج في كتابه الشهير "كتاب الصناعتين" في أبواب اللفظ والمعنى، وتطرق فيه الي آراء الأدباء وسائر نقّاد عصره عن هذا الموضوع، وكان يقول: «مدار البلاغة علي تحسين اللفظ» (العسكري، ٢٠١٣: ٥٦).

انبهر الكثيرون من النقاد والأدباء بهذا المذهب عبر القرون الغابرة والحالية بحيث رأوا في اللفظ قوة تُسحر القلوب وتسخرها لإشتمالها علي الصفات المختلفة كالمس والجهر الخ، فمنهم قدامة بن جعفر حيث يقول: «المعاني كلّها معرضة للشاعر، وله أن يتكلم منها في ما أحب وأثر، من غير أن يحظر عليه معنى يروم الكلام فيه، إذ كانت المعاني للشعر بمنزلة المادة الموضوعية، والشعر فيها كالصورة، كما يوجد في كل صناعة... وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان من الرفعة والضعفة، والرفث والنزاهة، والبذخ والقناعة، والمدح وغير ذلك من المعاني الحميدة أو الذميمة، أن يتوخّى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة» (قدامة بن جعفر، دون تا: ٦٥-٦٦). وقد لاقى هذا الإتجاه انتشارا واسعا عند النقاد المعاصرين المتمثلين في الشكلانيين والبنويين، حيث يعطون الأولوية للفظ والبنية، والبنية هي التي تتعين المعنى او الفحوي، فهم يرون أن القصيدة تتمتع بشخصية متماسكة حية وأنها وحدة تتألف من عناصر مختلفة كثيرة وهي متماسكة متوازنة من حيث الشكل والمحتوي» (جاسم، ١٩٨٦: ١٥١).

المذهب الثاني

ذهب هذا الفريق إلى القول بالجمع بين اللفظ والمعنى وعلي رأس هذا الهرم ابن قتيبة، فكان يرى أن الشعر يسمو بسموّهما وينخفض بضعتهما وانخفاضهما، وقد قسم الشعر إلى أربعة أضرب كالتالي:

١. ضرب حسن لفظه وجادّ معناه.
٢. ضرب منه حسن لفظه وحلا، فإذا فتشته لم تجد هناك فائدة في المعنى.
٣. ضرب منه جادّ معناه، وقصرت ألفاظه.
٤. ضرب منه تأخر معناه، وتأخر لفظه. (ابن قتيبة، ١٩٥٨، ج١: ٦٤-٦٩)

لا يعتقد ابن قتيبة بتفاضل أحد من اللفظ أو المعنى على الآخر؛ لأن كل منهما له دوره في إيصال المعنى إلى المتلقي؛ فلامزية لأحدهما على الآخر بحيث يكون اللفظ حسنا وكذلك المعنى وقد يتساويان في القبح وقد يفترقان، غير أننا نقول إنوضع اللغة في أطر جافة محددة وإدارجها في قوالب معينة خطأ بئس؛ لأن اللغة تعدي حدود التقسيم، وتشتمل على ما يتجاوز حدود اللفظ البسيط والمعنى المتبادر إلى المعاني غير المتبادرة وغير المحسوسة.

المذهب الثالث

يعتقد أصحاب هذا الفريق بتفاضل المعنى على اللفظ، وهذا هو المنهج الشائع عند كثير من القدماء، فهم يعتقدون أن اللفظ ليس إلا وعاء يملأ بالمعنى المراد. وخير من يمثل هذا المذهب ابن جني، حيث يقول إن العرب فيما أخذناه عنها وعرفناه من تصريف مذاهبها عنايتها بمعانيها أقوى من عنايتها بألفاظها... فالمعنى إذن هو المكرم المخدم واللفظ هو المبتذل الخادم. (حاجي زادة، ٢٠١٠: ١٦) وكذلك انظر إلى قول ابن رشيق في عمدته قائلاً: «اللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه كارتباط الروح بالجسم: يضعف بضعفه، ويقوى بقوته، فإذا سلم المعنى واختل بعض اللفظ كان نقصاً للشعر وهجنة عليه... فإن اختل المعنى كله وفسد بقي اللفظ موثلاً لا فائدة فيه» (ابن رشيق، ١٩٨١، ج ١: ١٢٤).

المذهب الرابع

يرى أصحاب هذا المذهب أن اللفظ مكمل المعنى ولا ينبغي التفارق بينهما، وإمام هذا الفريق عبد القاهر الجرجاني حيث يرى أن اللفظ والمعنى متعاونان معاً على كشف العلاقة التي عبر عنها بالنظم. وقد يخيل للبعض أن عبد القاهر من أنصار المعنى دون اللفظ لقوله في دلائل الإعجاز: الألفاظ خدم المعاني. (الجرجاني، ٢٠٠١: ٥٣) إلا أنه يتضح لنا في خضم بحثه حول اللفظ والمعنى أنه لا يقصد من جملته السابقة إلا معارضة أنصار اللفظ، لأنهم كانوا قد أعطوا المكانة الأولى للفظ دون المعنى، وهولم يرد أن ينتصر للمعنى فحسب؛ لأنه يعتقد أن العلاقة القائمة بينهما علاقة الوعاء بشيء موعي، فهو يرى أن أهمية اللفظ تكمن في علاقته مع الجملة ومع ما سبقته وما لحقته من الألفاظ والتعابير. (الجرجاني، ٢٠٠١: ٤٣؛ شميسا، ١٣٨٨: ٧٩)

اللفظ والمعنى عند حازم القرطاجني

كان يرى القرطاجني أن هناك وحدة بينكُلِّ من اللفظ والمعنى، غير أن المعنى في مسيرة تكوينه وتشكيله يحتاج الى اللفظ والتعبير لكي يستطيع أن يرى النور ويظهر في ساحة الوجود، ولكنه ورغم كل ذلك يضع المعنى في رأس الهرم واللفظ تحته، فالأولوية للمعنى دون اللفظ، والكلمة عنده تابعة للمعنى جارية على مضمونها، وجودته أو رداثته منوطه بالمعنى. فكان يقول: «يجب أن يكون اللفظ طبقاً للمعنى تابعا له جارية العبارة من أنحاءها على أوضح مناهج البيان والفصاحة» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٢٣)، كما كان يعتقد أن المعاني هي كاللوح للصور، واللفظ ليس إلا انسجام تلك الألوان ومزجها مع بعضها وقد أشار في غير موضع من كتابه "منهاج البلاغ" - كما سنأتي لاحقا بمزيد من البسط والتفصيل - الى أن اللفظ له مكانته في حد نفسه، بحيث لو لم يكن اللفظ لما ظهرت المعاني أبداً ولقَبَعَت في سجن الذهن، فظهورها مدينة للألفاظ وهذا هو السبب أننا أدرجنا القرطاجني رغم إشارته في غير موضع الى تبعية اللفظ من المعنى فيأتباع المذهب الثالث القائل باتحاد اللفظ والمعنى. يعتقد القرطاجني أن المعاني هي الأصل وعندما يتم التعبير عن تلك المعاني في قالب الألفاظ يطرأ عليها التبدل والتحويل، فتتحول الألفاظ الى وجود حقيقي لتلك المعاني، فصارت هي هي، ويكمل بعضهما البعض، وعلى حد تعبيره في منهاجه بنصّه وفصّه: «إذا عبر الإنسان عن تلك الصورة الذهنية الحاصلة عن الإدراك أقام اللفظ المعبر به هيئة تلك الصورة الذهنية في أفهام السامعين وأذهانهم، فصار للمعنى وجود آخر من جهة دلالة الألفاظ» (القرطاجني، ١٩٦٦: ١٨-١٩). كما كان يعتقد أن الدليل هو اللفظ والمدلول هو المعنى، بحيث لو لم يكن هناك دليل وهو اللفظ لَمَا كان هناك مدلول وهو المعنى، وإذا حصل المعنى ليس هذا الحصول الا نتيجة لوجود اللفظ، فتكون المسألة إذن كالتالي:

المعنى أو المدلول ← → اللفظ أو الدال

فاللفظ الخارجي تعبير عن المعنى الذهني، وهذا المعنى ليس بإمكانه أن يرى النور دون أن يتم التعبير عنه باللفظ وعلى ما يقول الأخطل في إحدى قصائده:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جَعَلَ اللِّسَانَ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا

(الأخطل، ١٩٩٦: ٥٦٠)

فعلاقتهما علاقة تضافر وتكامل، ونعتقد أن هذا الرأي هو الصحيح الصائب؛ لأن

غير واحد من النقاد والأدباء المعاصرين ذهبوا إلى تضافر اللفظ والمعنى ولا يرون أن يكون المعنى منفصلاً عن اللفظ أو على العكس. فالقرطاجني يرى أن المعاني لوصبت في قالب الألفاظ الجميلة والخلابة لتضاعف تأثيرها على المخاطب، كما أن الشراب إذا كان في آنية صافية شفافة لكان أكثر لذة للشاربين! وعلى حدّ تعبيره بالحرف الواحد:

«فإذا تلقى الإنسان المعنى في عبارة بديعة اهتز له وتحرك لمقتضاه، كما أن العين والنفس تبتهج لاجتلاء ماله شعاع ولون من الأشربة في الآنية التي تشف عنها كزجاج والبلور مالم تبتهج لذلك إذا عرض عليها في آنية الحنتم (الجرة السوداء) وجب أن تكون الأقاويل الشعرية أشد الأقاويل تحريكاً للنفوس؛ لأنها أشد إفصاحاً عما به علقه الأغراض الإنسانية» (القرطاجني، ١٩٦٦: ١١٨).

وأما ما وجدناه خلال دراستنا هذه في كتاب منهاج البلغاء للقرطاجني فهو قد يلبس على المعاني صفات إنسانية ويخلع عليها شيئاً من ميزات البشرية وسماها لتظهر في لباس جديد لم تكن عليها في القديم السابق، وبما أن الألفاظ ممثلة للمعاني وخليفة جديدة عنها فهي - كالمعاني طبعاً - تتبلور فيها تلك الصفات الإنسانية تبعاً للمعاني، ولنا في هذا الدعوى دليل من قول القرطاجني نفسه في منهاجه حيث يقول: «وأما طريق التهدي إلى تحسينات الأشياء وتببيحاتها بالمحاكاة فإنه لما كان المقصود انهاض النفوس إلى فعل شيء أو طلبه أو اعتقاده أو التخلي عن فعله أو طلبه أو اعتقاده بما يخيل لها فيه من حسن أو قبح وجلالة وخسّة وجب أن تكون موضوعات صناعة الشعر الأشياء التي لها انتساب إلى ما يفعله الإنسان ويطلبه ويعتقده، والأقاويل الدالة على تلك الأشياء من حيث تخيل بها تلك الأشياء وطرق تعلقها بالشيء أو فعله أو اعتقاده أربعة. وهي: من جهة الدين، من جهة العقل، من جهة المروءات، ومن جهة الحظ العاجل» (القرطاجني، ١٩٦٦: ١٠٦). ولعله يخطر ببال المطالع ما هو الجديد في معتد القرطاجني فيما يخص مسألة اللفظ والمعنى، أو بتعبير آخر ماذا يوجد في نظرية القرطاجني لا يوجد في بقية المدارس الفكرية؟ لنا القول أن القرطاجني على أقل التقادير ألبس على المعاني والألفاظ معان إنسانية، الأمر الذي لم يكن بالأمر المعتاد عند قدمائه بأي شكل من الأشكال إلا نادراً. فهذا هو الذي يميز القرطاجني عن الآخرين وعمن سبقه من العلماء واللغويين. هذا وأن وجوه المعاني الإنسانية عند حازم القرطاجني تتبلور في الوجوه التالية:

(أ) القبض والبسط:

إن الذي يستفاد من مفهوم القبض والبسط عند حازم هو الذي يحدث للمتلقى إثر عملية التلقي، ومعنى ذلك أن المعاني يجب أن تكون من التي تثير النفوس وتستفز مشاعرهم! فكل من المعاني والألفاظ والخيال تتعاون مع بعضها حتى تتمكن من خلق هذا التأثير! فالمعاني إذا كانت علمية والألفاظ إذا كانت رديئة أو مبتذلة فلا يتحرك منها الخيال، وبالتالي فلا تبسط لها النفوس في مواضع الأفراح ولا تنقبض في مواضع الأتراح، وهذا هو السبب أن الكلام سمي كلاماً لأنه يؤثر على سامعه لشدة وقوته، وحسب تعبير ابن جني: الكلمة مشتقة من الكلم ويدل على القوة والشدة وهو الجرح فكما أن الجرح يؤثر على الجريح بالشدة، فالكلام أيضاً يؤثر على سامعه، (ابن جني، ١٩٥٢، ج: ١، ١٢) وهذا شريطة أن يكون الكلام أدبياً وأن يُراعَ فيه كافة ميزات الكلام الأدبي المثير للأحاسيس، فالكلام إن لم يكن قادراً على بسط النفوس وقبضها فهو قليل عن إثارة المشاعر، فيجب أن يكون هدف الشعر والكلام الأدبي واضحاً جلياً في التأثير على المتلقي وعلى حد تعبير حازم نفسه في منهاجه: «القص من الشعر هو استجلاب المنافع واستدفاع المضار، ببسطها النفوس إلى ما يراد من ذلك وقبضها عما يراد بما يخيل لها فيه من خير أو شر» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٣٢٧).

فالقرطاجني يستخلص هدف الشعر وواجبه في استنهاض الهمم واستجلاب المنافع واستدفاع المضار، ولا يمكن وقوع شيء من ذلك إلا ببسط النفوس في مواضع البسط وقبضها في مواضع القبض. ويقول في موضع آخر عن أنس المعاني وعلاقتها مع بعضها حتى تستمتع منها النفوس: «فبالصرف في المعاني يحسن موقع الأساليب من النفوس، فمن هنا هذا النحو وسلك في الطرق والأساليب والمسالك المؤثرة وذهب بها المذاهب الملائمة للأغراض وأنس بعض المعاني ببعض وراوح بينها على النحو المشار إليه كان جديراً أن ترتاح النفوس لأسلوبه وأن يحسن موقعه منها» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٣٥٩).

فحازم يعتقد أن الشعر يجب أن يكون متسلحاً بأغراض ومضامين تثير انفعالات النفس ومشاعر الإنسان، فالمرحلة الأولى لخلق القبض والبسط في المتلقي هي جودة التصرف في المعاني، بحيث يصير لزاماً على الشاعر أو الناثر أن يختار تلك المعاني التي لها يد طويلة في إثارة تلك الانفعالات والمشاعر، وذلك لا ينحصر في اختيار المعاني نفسها وإنما في موائمة تلك المعاني والموافقة بينها مع بعضها أيضاً، وهاك قول القرطاجني في ذلك حرفياً: «يجب على

من أراد جودة التصرف في المعاني وحسن المذهب في اجتلابها والحدق بتأليف بعضها الى بعض أن يعرف أن للشعراء أغراضاً أول هي الباعثة على قول الشعر وهي أمور تحدث عنها تأثيرات وانفعالات للنفوس لكون تلك الأمور مما يناسبها ويبسطها أو ينافرها ويقبضها!» (القرطاجني، ١٩٦٦: ١١).

ولذلك لا يستأهل المعاني العلمية والخبرية البهتة أن تكون في موضع الشعر، لضعفها وعدم تمكّنها من إستثارة المشاعر؛ لأنها تتطرق الى وصف العلم وما فيه من موضوعات، والحال أن المعاني الشعرية الحقيقية يجب أن تستقي من مناهل الشعور وتضرب على قيثارة الأحاسيس المشتركة الإنسانية، فأين هذا من ذلك؟ وكأن القرطاجني أراد أن يقول أن المعاني الشعورية هي المعاني الإنسانية لاشتمالها على الصفات البشرية ولتمكّنها من ايجاد القبض والبسط في النفوس البشرية، حيث يقول: «... إن المسائل العلمية يستبرد إيرادها في الشعر أكثر الناس، ولا يستطيب وقوعها فيه الامن صار من شدة ولوعه بعلم ما بحيث يتشوّف الى ذكر مسائل ذلك العلم ويحب إجرائها ولو في المواطن التي لا تليق بها ولا تقبلها ألبتة، لكون التفرغ الكلي للراحة والأنس والتفرج أو ضد ذلك قد حجر ذكرها» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٣٠).

وهذا الأمر واضح تماماً، لأن المسائل العلمية فارغة من الخيال وقاصرة عن إثارة الحواسيس والمشاعر لكونها علمية غير منعتة عن الشعور! فالمسائل العلمية في الحقيقة لاروح فيها ولا إحساس، فهي جامدة غير إنسانية وهذا هو السبب أنها لا يؤتّى بها في الشعر والأدب الاعلى غرر وعند من لم يكن له نصيب في الأدب أو عند من كان بصدد إثبات علمه في الشعر وهذا يناه في مع روح الشعر تماماً.

هذا وأن القرطاجني تأثر في رأيه هذا من الطبيب والفيلسوف الإيراني ابن سينا أشد ما يكون من تأثير؛ وذلك لأن ابن سينا - رغم علمه الوافر - في المنطق والفلسفة و... غير أنه لم يكن منطقياً بحتاً، فله آراؤه في الشعر والأدب وغيرهما! ولا تتصف آراؤه بالتخشّب والتجمّد أبداً بل انما هي ليّنة لين آراء الأدباء والنقاد، فانعكست هذه الميزة في آراء القرطاجني أيضاً، وخرّجته من تحجّر المنطقيين الذين يضعون الشعر والأدب في إطار محدّد متضايق الى عالم الأدباء والنقاد المنفتحين! فالقرطاجني يرى أن ابن سينا أقرب الفلاسفة اليه في آرائه الأدبية وفي منحاه الأدبي، لأنه لم يكن منطقياً بحتاً، فهو لا يعرف الشعر بالصناعة البهتة خلافاً للمنطقيين، وانما يرى في الشعر الهاما لا يوزن بموازين المنطق والعالم

المحسوس، (راجع: أرسطوطاليس، ١٩٧٣: ١٦١؛ والزرقاني، ١٣٩١: ٢٢٣) كما أن لابن سينا آراءه في الشعر والوزن والقبض والبسط وغيرها، وهذا هو السبب أن القرطاجني يحذو حذوه ويتأسى به بين عدد ملحوظ من العلماء والفلاسفة والمنطقيين، فيقتبس من أقوال ابن سينا في غير موضع من منهاجه، فانظر مثلاً إلى قول ابن سينا في انفعال النفس بالشعر والكلام المخيل: «انما ينظر المنطقي في الشعر من حيث هو مخيل والمخيل هو الكلام الذي تدعن له النفس فتبسط عن أمور وتتقبض عن أمور من غير روية وفكر واختيار، وبالجملة تتفعل له انفعالا نفسانياً غير فكري سواء كان المقول مصدقاً أو غير مصدق» (أرسطوطاليس، ١٩٧٣: ١٦١). يقول القرطاجني ملهماً كلام الشيخ الرئيس: «والتخييل أن تتمثل للسامع من لفظ الشاعر المخيل أو معانيه أو أسلوبه ونظامه وتقوم في خياله صورة أو صور ينفعل لتخييلها وتصورها أو تصور شيء آخر بها انفعالا من غير روية الى جهة من الانبساط أو الانقباض» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٨٩). ويقول في موضع آخر من كتابه:

«لما كانت أغراض الشعر شتى وكان منها ما يقصد به الجد والرصانة وما يقصد به الهزل والرشاقة ومنها ما يقصد به البهاء والتخيم وما يقصد به الصغار والتخيم وجب أن تحاكي تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان ويخيلها للنفوس، فاذا قصد الشاعر الفخر حاكى غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة وإذا قصد في موضع قصد هزلياً أو استخفافياً وقصد تحقير شيء أو العبث به حاكى ذلك بما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء وكذلك في كل مقصد... وهذا الذي ذكرته من تخيل الأغراض بالأوزان قد نبه عليه ابن سينا في غير موضع من كتبه» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٦٦). ونكتفي بهذا القدر اليسير في إثبات تأثر حازم من ابن سينا ولا نطيل الكلام اتقاءً للإطالة ولكون الموضوع خارجاً عن صلب المقال.

ب) فطرية المعاني: بحيث تدعو إلى الاستلذاذ والاستمتاع وتجرُّ النفوس اليهما، والأساس في الفطرية يكمن في كون المعاني قريبة إلى الفطرة السليمة والأغراض الإنسانية الرفيعة، وعلى حد تعبير القرطاجني بالحرف الواحد: «أحق الأشياء هي التي يجب أن يميل الناس إليها أو ينفروا عنها الأشياء التي فطرت النفوس على استلذاذها أو التألم منها أو حصل لها ذلك بالإعتياد ولذلك يجب أن تكون أعرق المعاني في الصناعة الشعرية ما اشتدت علقته بأغراض الإنسان وكانت دواعي آرائه متوقفة عليه وكانت نفوس الخاصة والعامة قد اشتركت في الفطرة على الميل إليها أو النفور عنها أو من حصول ذلك إليها بالإعتياد، وجب أن يكون ما لم تتوفر دواعي

أغراض الإنسان عليه وما انفرد بإدراكه المكتسب الخاص دون الجمهور غير عريق في الصناعة الشعرية بالنسبة الى المقاصد المألوفة والمدارك الجمهورية. (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٠)

خذ مثالا لزيادة الإيضاح فإنك لو استخدمت المعاني والتعابير السوقية والمهنية لضعفتها وردائها في صناعة الشعر والأدب، لأزلت طلاوة الكلام وحلاوته وحسن موقعه من النفس. والسؤال الذي يطرح نفسه هنا بإلحاح كيف يمكن أن تكون المعاني فطرية؟ كيف يسوّغ لأحد أن يتّصفها بالفطرية؟ وهذا هو مراد القرطاجني من الفطرية، كأنه يصنع من تلك المعاني وجوهاً بشرية ويخلع على تلك الوجوه معان انسانية! فالفطرية عند حازم هي المعاني التي انفطرت نفوس الجمهور على استشعار الفرح منها أو الحزن والشجو من جرائها؛ لأن المعاني كلما كانت قريبة الى الجبلة والفطرة النقية كلما ازداد تأثيرها وقبولها عند الخواص والعوام! وأصول الفطرة عند حازم أربعة وهي تتمثل في الدين والعقل والمروءة والشهوة، (القرطاجني، ١٩٦٦: ١٠٨) وماخالف تلك الوجوه الأربعة خارج عن الفطرية.

وأما الأسباب التي دفعت بحازم القرطاجني أن يدرج تلك الوجوه الأربعة ضمن الفطرية فواضحة تماماً، لأنها تشكل جوهر الإنسان، وما يبقى من وجوه آخر فهي من ضمن العرضيات. فالمعاني التي تنطوي على المفاهيم الدينية فهي ما تؤثر النفس من الثواب على فعل شيء وتخاف من العقوبة على تركه وإهماله، وأما المعاني التي تتضمن في طياتها المعاني العقلية فهي كل ما يدعو الى التخلي عن الجهل والسفاهة، فهذين المعنيين واضحان ولا حاجة لنا بمزيد من التفصيل، غير أن المراد من المعاني الفطرية التي تشتمل على المروءة هوما تؤثر النفس من الذكر الجميل والثناء عليه أو ما يستحثه من مشاعر انسانية مشتركة خالدة كالحب والتضحية والوفاء الخ، لأنك لن تجد على وجه المعمورة أحدا يستشنع الكرم والسخاء والذكر الحسن أو يقبّح الحب والغيرة الا مجنون من الرجال أو تائه في الحيرة والضلال. وقد عبّر القرطاجني عن المعاني الفطرية التي تشتمل على الشهوة بالحظ العاجل، ومراده من ذلك حصول الإنسان على ما يبتغيه من حاجيات نفسه وغرائز جسمه من المأكّل والمشرب وما الى ذلك في القريب العاجل. فكل ما تحرص عليه النفس وتشتهيها مما ينفعها من جهة رفع حوائجها وتحسينات عيشه فهو من ضمن الشهوة أو الحظ العاجل، كما يندرج في هذه الخانة كل من الحب والعشق والغرام... فانظر مثلاً إلى قول عنتره حين يخاطب عشيقته - عبلة - في جو ملؤه الخوف والحرب والنزال فيخاطبها خطاب عاشق متيم يريد أن يقبل السيوف والرماح؛ لأنها تضارع ثغر عشيقته المتبسّم:

وَلَقَدْ ذَكَرْتُكَ وَالرَّمَّاحُ نَوَاهِلُ مَنِّي وَبَيْضُ الْهَيْدِ تَقَطَّرُ مِنْ دَمِي
فَوَدَدْتُ تَقْبِيلَ السُّيُوفِ لِأَنَّهَا لَمَعَتْ كَبَارِقِ تَفْعُرِكَ الْمَتَبَسِّمِ
(القرشي، دون تا: ٢٧٧)

كيف يمكن أن يتلقى المخاطب أو المتلقي بتلك الأبيات ولم يدغدغ مشاعره وأحاساسيه؟ والحال أنها تنطلق بالإنسان الى آفاق الخيال وسماء الحب، في جو من الحماسة البهيجة والقدرة المخيفة او ينقل القرطاجني في منهاجه وصية أبي تمام للبحثري حين يخاطبه بأن يستخدم شهوته للنشيد والقريض، لأنها نعم المعين في ذلك: «... فان أردت النسب فاجعل اللفظ رقيقا والمعنى رشيقا وأكثر فيه من بنات الصبابة وتوجع الكأبة وقلق الأشواق ولوعة الفراق... وإياك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام واذا عارضك الضجر فأرح نفسك ولا تعمل ألّا وأنت فارغ القلب واجعل شهوتك لقول الشعر ذريعة الى حسن نظمه، فإن الشهوة نعم المعين» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٠٣).

والحاصل أن موضوع صناعة الشعر واتصاف معانيها بالمعاني الإنسانية يرجع لدى حازم إلى الأسباب الأربعة المذكورة وهي الدين والعقل والمروءة والشهوة.

ج) شرف المعاني وخستها

كيف يحتمل أن يكون معنى من المعاني شريفا تماما؟ وكيف يخرج المعنى من الأناية والخساسة الى الشرف والطلاوة؟ نعتقد أن ذلك مرده الى كون المعنى أصلا، بحيث لو كان المقام مقام مدح أو رثاء أو فخر فلا يؤتى الا بالمعاني الشريفة! وعلى النقيض من ذلك بحيث لو كان المقام مقام الذم والهجو فلا تؤتى إلا بالمعاني الخسيسة القبيحة! والموافقة بين المقام والمقال خارج عن إطار مقالنا هذا والمهم في ذلك نسبة الشرف أو القبح أو الخساسة أو الرذالة... إلى المعاني، بحيث خلع القرطاجني - اقتداء ببشر بن معتمر والجاحظ وابن سينا - على تلك المعاني صفاتا إنسانية، غير أن مستوى استخدام تلك الصفات وبلورتها لدى حازم أكثر من الآخرين بكثير.

يبدو أن بشر بن معتمر هو أول من أصل المعاني الإنسانية وتحدثت عن شرف المعنى واللفظ، بحيث ينقل عنه الجاحظ في البيان والتبيين: «إياك والتوعر، فإن التوعر يسلمك الى التعقيد، والتعقيد هو الذي يستهلك معانيك، ويشين ألفاظك. ومن أراغ معنى كريما فليتمس له لفظا كريما، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما

يفسدهما ويهجنها...» (الجاحظ، ١٩٤٨، ج: ١، ١٣٦) ويذكر حازم شرف المعاني في مواضع كثيرة في منهاجه، على شاكلة ما نرى عن قوله واصفا الشعر الجيد: «ويُسْتَحْسَنُ أن يقدم في صدر المصراع ما يكون لطيفا محركا بالنسبة الى غرض الكلام كالمناجاة والتذكر في النسيب وما جرى مجراهما... ويجب أن يكون المصراع الثاني مناسبا للمصراع الأول في حسن عبارته وتماهما وشرف معناها بالجملة» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٨٤). وعن قوله: «... اذا قصد إبعاد الغاية في الروية والتنقيح فتطلب المعاني الشريفة ونزع بها المنازع اللطيفة وجهد في إبرازها من العبارات في صور بدعية، فيحتاج في كل ذلك الى تنقيب وفحص...» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢١١).

فيتضح من المقول أن المعنى لا يتصف عند القرطاجني بالشرف والعلو إلا إذا كان يحتوي في طياته مفاهيم الدين والعقل والإنسانية! فالمعاني لولم تتصف بتلك المفاهيم فهي خسيصة قبيحة. هذا وأن القرطاجني أطلق لفظ الشريف على المعاني أكثر من غيرها، مما له صلة متينة بالإنسانية حيث أن الشرف ميزان الإنسانية، فإذا تخلي الناس عن هذه الميزة كأنهم تخلوا عن كل خير، وكذلك المعاني اذا كانت شريفة فهي على أعلى درجات القوة في الكلام، الأمر الذي يساهم أكبر مساهمة في تأثير الكلام أو الشعر على المخاطب والمتلقي!

د) رشاقة المعاني

يقال رجل رشيق أي حسن القد لطيفه، ويقال للغلام والجارية رشيق ورشيقة إذا كانا في اعتدال. (صاح للجوهري، ١٩٩٠، ج: ٥، ١٦٨) يعتقد القرطاجني أن المعاني الرشيقة تُستخدم في النسيب والتغزل، لأن الرشاقة تناسب هذا المقام تماما، وقد يطرح هذا التساؤل لماذا لم يأت بذكر المعاني الشريفة هنا بيانا للمفاهيم الغزلية؟ فنقول إن المعاني الشريفة - رغم كونها كبيرة محببة إلى القلوب والنفوس - غير أنها لا تناسب مقام الغزل والصبابة، وإن ما يناسب ذلك هو المعاني الرشيقة المتلألئة؛ لأنها تستثير أحاسيس المتلقي وتستفز مشاعره وتضرب على أوتار قلب العشيق ولو كنا أتينا في هذا السياق بالمعاني الشريفة لما أفادت المعنى المقصود؛ لأن المعاني الشريفة رغم أنها تدل على بلورة صفة إنسانية فيها ولكنها اذا ذكرت في مقام الغزل لَمَّا استطاعت أن تفيد معنى الرشاقة! فخذ مثلا في ذلك لزيادة الإيضاح، يقول الشاعر:

مَا كُنْتُ أَحْسَبُ قَبْلَ حُبِّكَ أَنْ أَرَى فِي غَيْرِ دَارِ الْخُلْدِ حُورَ الْعَيْنِ

(ابن سهل الأندلسي، ٢٠٠٣: ٧٩)

فالشاعر لو كان يستخدم بدل كل من كلمات "الحب" و"دار الخلد" و"حور العين" الرشيقة، كلمات مطنطنة ثقيلة لما استطاع أبداً من يصل إلى المتلقي هذا المفهوم الذي كان يصده من بيان الحب واختلاجات الصدر والضمير.

هـ) شناعة المعاني وقبحها

كل معنى يخالف الشرف والحسن ويقع في نقيض من الكرامة فهي مشنوء، والمشنوء هو المبعوض ولو كان جميلاً. (ابن منظور، مادة: شنأ) وشناعة المعنى وقبحه من الصفات الأخرى التي ذكرها القرطاجني في المعاني وكأنه يريد بذكر هاتين الصفتين أن يلبس على المعاني صفات إنسانية، أنظر مثلاً إلى قوله عن القافية: «فأما ما يجب في القافية من جهة عناية النفس بما يقع فيها واشتهار ما تتضمنه مما يحسن أو يقبح فإنه يجب أن لا يقع فيها إلا ما يكون له موقع من النفس بحسب الغرض وأن يتباعد بها عن المعاني المشنوءة والألفاظ الكريهة ولا سيما ما يقبح من جهة ما يتفاءل به» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٧٥-٢٧٦). وإلى قوله في موضع آخر من منهاجه: «فأما ما تتأكد به العناية عند قوم ولا تتأكد عند الآخرين فمقاطع القصائد وأبياتها الأواخر وذلك من جهة ما يرجع إلى هيئات الوضع والتأليف والأطراد والألفاظ والمعاني والنظام والأسلوب، فأما من جهة وقوع لفظ مكروه أو معنى مشنوء في منقطع الكلام فالرأي فيه واحد، في أن التحفظ منه واجب على كل ناظم أو ناثر» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٣٠٨-٣٠٩).

جدير بالذكر أن القرطاجني ذكر المعنى المشنوء إلى جانب اللفظ المكروه، وذلك لأن اللفظ يتبع المعنى في قبحه وجماله. ولا تنحصر المعاني الإنسانية لدى حازم القرطاجني فيما ذكرناه وبيناه من الأمثلة والشواهد وإنما هي كثيرة كثيرة مفرطة، فهو يدرج في المعنى الشريف كل ما كان موافقاً للدين والعقل ولم يكن من حوَارم المرءة، وعلى العكس من ذلك بحيث يضع كل القبح والردل تحت المعنى القبيح والمشنوء.

بلورة الإنسانية في الألفاظ

ما من شك أن للألفاظ حياتها أيضاً، فمنها ما تموت عبر الزمان ومنها ما يبقى إلى يومنا الراهن، ومنها ما يطرأ عليه التغيير والتحويل وتلبس بلباس جديد قشيب وتخلع من نفسها القديم الزائل، فلها - كما للإنسان والمجتمعات البشرية - حياة، ولها شأنها ومرتبها في المجتمعات الراقية والمتطورة علماً وحضارة، بحيث لا يمكن الإساءة إلى ساحتها أو

إخراجها عما هي عليها وكأنها في انسجامها ووحدتها أبناء البشر تتعايش مع بعضها! واللغة ككل ترتبط ببيئتها وتؤثر عليها وتتأثر منها. فاللغة بكل ألفاظها ومعانيها في المجتمعات التي لا تُنتهك فيها حقوق أفرادها، مصادرة، فهي لا تنسلخ عن ماهيتها وطبيعتها الحقيقية خلافاً للمجتمعات المستبدة التي تتقاعس عن أداء حقوق أبناءها، فكما أن حقوق الأشخاص تنتهك في المجتمعات الوراثية الأتوقراطية فحقوق الألفاظ ومعانيها ليس في مأمن من هذا الانتهاك المشين! (انظر: شفيعي كدكني، ١٣٨٩: ٨٩-٩٢)

إن الأصل عند حازم هو المعنى، فالمعنى إذا انبثق عن ينباع الفطرة والسجية والجميلة فلا سبيل للألفاظ إلا أن تكون جميلة ومتلبسة بلباس تلك المعاني، لكي تستطيع من إفادة المعنى المراد، وهذا هو السبب أن اللفظ لا ينبض إلا بنبضات المعاني، لأنه تابع لها ويحاذيها في كل صفاتها ومضامينها، والصفات الإنسانية إذا تجلت في المعاني، فلا بد أن تتجلي في الألفاظ أيضاً، لأن الألفاظ وعاء للمعاني ولا تستطيع أن تستمر في حياتها دون اتكالها على الألفاظ، ومن ثم كلما كانت المعاني إنسانية كلما تحلّى الألفاظ بالإنسانية تبعاً لتلك المعاني، فالمتكلم عندما يريد أن ينقل معنى إلى المخاطب، يجب أن يجعل اللفظ تابعاً لهذا المعنى، وفي الحقيقية للألفاظ علاقاتها المتينة مع بعضها ومع المعاني أيضاً، ولا يجوز الإغماض عن تلك العلاقات؛ لأن ذلك تعدى إلى حدودها.

هذا وأن القرطاجني يعتقد بإنسانية الألفاظ والتعابير أيضاً، بحيث قام بتقسيم عدد من الألفاظ حسب الصفات الإنسانية وميزاتها، واليك بعض تلك الأمثلة:

خسة الألفاظ وردائتها وقبحها

تتبلور وظيفة الألفاظ في إفادة المعنى وإيصاله إلى المتلقي، وبما أن المعنى عند القرطاجني هو الأصل وعليه يدور قطب الرحى، يجب أن ينسجم اللفظ مع المعنى وأن يتضافر معه. ويرى القرطاجني أن علاقة اللفظ والمعنى متينة إلى أبعد الحدود حيث يفترض أن اللفظ في صناعة الشعر والكلام لوحة جميلة يعمل عمل الأصباغ والألوانوما تتمخّص من هذه العملية المتناسكة الأجزاء في خلق تلك اللوحة هو المعنى، والحكاية هي الحكاية نفسها في عالم الألفاظ والشعر والنثر، حيث إن لم تكن بين الألفاظ المنتقاة مع المعنى المراد موائمة فلم يؤدّ اللفظ مهمته المشودة في نقل المعنى المراد إلى المتلقي.

من الصفات الإنسانية التي يذكرها حازم في منهاجه في مسألة اللفظ هي الخساسة،

والمراد من ذلك استخدام الألفاظ الوضيعة والديئة في مواضع الضعف والخساسة، فلا توظف تلك الألفاظ الا في مقام الهزل والسخرية والإستهزاء، لكي تتمكن من إفادة المعنى المراد، بحيث يجب أن يكون اللفظ الملقى في مقام الهزل والإستهزاء هزيلا خسيسا، وعلى حد تعبير القرطاجني في منهاجه: ... لها باطن خسيس في الهزل... (القرطاجني، ١٩٦٦: ٣٢٩). فيتضح أن مواضع استخدام تلك الألفاظ هي الهزل والسخرية، ولا بد من وجود تلك الألفاظ في اللغة والعلاقات البشرية؛ لأن المجتمع البشري لا يخلو يوما ما من السخرية بيانا لمعايبه ومناقضه! يقول القرطاجني عن الألفاظ الخسيسة ومناسبتها مع مقتضى الحال:

«... شيوع استعمال العبارات الساقطة والألفاظ الخسيسة ككثير من ألفاظ الشطار المتماجنين وأهل المهن والعوام والنساء والصبيان على الوجه الذي تقبل به الطريقة ذلك، ... وهذا موجود في مجون أبي نواس كثيرا وغير منقود عليه، ذلك لأنه لاثق بالموضع الذي أورده فيه من أشعاره التي يقصد بها الهزل» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٣٣١).

والرداءة والقباحة من الصفات الأخرى التي ينسبها القرطاجني الى الألفاظ، ويخلع عليها صفة القبح والرداءة اللذين لا تتصف الألفاظ بهما في الحقيقة، وإنما تتصف بهما مظاهر الطبيعة والصفات الإنسانية، يقول القرطاجني:

«وإعلم أن منزلة حسن اللفظ المحاكي به وإحكام تأليفه من القول المحاكي به ومن المحاكاة بمنزلة عتاقة الأصباغ وحسن تأليف بعضها الى بعض وتناسب أوضاعها من الصور التي يمثلها الصانع، وكما أن الصورة اذا كانت أصباغها رديئة وأوضاعها متنافرة وجدنا العين نابية عنها غير مستلذة لمراعاتها وإن كانت تخطيطها صحيحا، فكذلك الألفاظ الرديئة والتأليف المتنافر، وإن وقعت بها المحاكاة الصحيحة فإننا نجد السمع يتأذى بمرور تلك الألفاظ الرديئة القبيحة التأليف عليها... فلذلك كانت الحاجة في هذه الصناعة الى اختيار اللفظ وإحكام التأليف أكيدة جدا» (القرطاجني، ١٩٦٦: ١٢٩).

كراهة الألفاظ وزريتها

يذكر القرطاجني الألفاظ المكروهة أمام المعاني المشنوءة، وبتعبير أجل يعتقد أن المعنى لو كان قبيحا يصير اللفظ - تبعا لذلك - مكروها أو زريًا، فالألفاظ المكروهة أو الزريّة قاصرة عن التأثير الإيجابي على المتلقي، لأنها تنقص من سمو الكلام ورفعته. وما من شك أن للألفاظ - كما أشرنا - حرمتها وحدودها، فلا يجوز التعدي اليها ولا التخطي عنها، وتوظيف

الألفاظ الزرية والكريهة في الكلام والأدب فضلا عن تأثيرها السلبي على المخاطب إنتهاك الى حقوق اللفظ والتعبير. ينقل حازم في كتابه المنهاج وصية أبي تمام للبحثري، حيث يقول له: «وأيّاك أن تشين شعرك بالألفاظ الزرية وكن كأنك خياط يقطع الثياب على مقادير الأجسام» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٠٢).

وقد يطرح بعضهم أن الألفاظ الكريهة والقبیحة تكوّن جزءاً من الكلام البشري وليس بالإمكان شطبها من قاموس الناس ولا بد من تلك الألفاظ لمعرفة الجميلة منها وعلى ما يقال: تُعرّف الأشياء بأضدادها، فنقول إجابة على هذه الإشكالية: أن مراد القرطاجني هو تأثير الكلام الشعري أو الأدبي على المخاطب ولا يقصد الكلام العادي عند السوقة والشعب، وذلك لأننا لو أردنا أن يؤثر الكلام الأدبي على المتلقي أكبر تأثير فلا بد فيه من إنتقاء الألفاظ الصحيحة والفارغة عن كل قبح وشناعة.

حسن الألفاظ

إن المراد من حسن الألفاظ هو استحكامها وتعاونها مع بعضها من جهة وتناسبها مع المعنى من جهة أخرى. إن المعنى - كما أمحنا من قبل - إذا كان شريفا فاللفظ يتبعه في ذلك فيصبح شريفا حسنا، فألفاظ الحسان رهينة بوجود المعاني الشريفة، فانظر مثلا الى قول القرطاجني في منهاجه حيث يضع اللفظ الحسن أمام المعنى الشريف مما يدل على أن الإصالة هي للمعنى: «فأما ما يجب في المطالع على رأي من يجعلها استهلالات القصائد فمن ذلك ما يرجع الى جملة المصراع وهو أن تكون العبارة فيه حسنة جزلة وأن يكون المعنى شريفا تاما، وأن تكون الدلالة على المعنى واضحة وأن تكون الألفاظ الواقعة فيه لاسيما الأولى والواقعة في مقطع المصراع مستحسنة غير كريهة من جهة مسموعها ومفهومها» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٨٢). ويقول في موضوع آخر: «كذلك يحسن نظم القصيدة من الفصول الحسان كما يحسن ائتلاف الكلام من ألفاظ الحسان اذا كان تأليفها منها على ما يجب» (القرطاجني، ١٩٦٦: ٢٨٧).

النتائج

كانت ولا تزال مسألة اللفظ والمعنى من أهم المسائل التي حيّزت قسماً كبيراً من الأدب العربي، وانشغل بها جم غفير من العلماء والنقاد، وكان منهم من تطرّق إلى هذه المسألة بنظرة إنسانية وطرح موضوع تناسب اللفظ والمعنى ومطابقتها مقتضى الحال وشرف المعنى أو رشاقتها أو قبحه وخساسته وكذلك اللفظ. وكان حازم القرطاجني من أكبر من تطرّق إلى موضوع إنسانية المعنى واللفظ، حيث لخصّ أسس إنسانية المعنى والألفاظ في أربعة: وهي الدين والعقل والمروءة والشهوة، وكان يعتقد أن الكلام لا يحظى بالتأثير على المتلقي إذا كان إنسانياً أولاً وفطرياً منبعثاً عن الشعور ثانياً. وما ساقنا أن نجعل القرطاجني على ذروة موضوع إنسانية اللفظ والمعنى رأيه في فطرية المعاني والقبض والبسط وإلباسه على المعاني والألفاظ صفاتاً إنسانية كالشرافة والرشاقة والرداءة والقباحة والخساسة وغير ذلك. وكان يرى أن الفطرية في المعاني والألفاظ هي قريبا من الفطرة السليمة ومن الأغراض الإنسانية الكريمة، لتكون أشدّ علقه بأغراض الإنسان، وأما المراد من القبض والبسط كون المعاني والألفاظ مثيرة للنفوس والمشاعر بحيث إنها إذا كانت خسيصة ردئية لا تتيسر لها إنبساط النفوس عند الأفراح ولا إنقباضها عند الأتراح. رغم أن موضوع إنسانية اللفظ والمعنى كان قد طرح من قبل لدى عدد من العلماء والأدباء كبشربن معتمر والجاحظ وابن سينا وغيرهم إلا أنه كان محدوداً ضيق النطاق، ولم يكن بتلك الشمولية والموضوعية اللتين نراهما عند القرطاجني.

المصادر والمراجع

١. ابن جنّي، عثمان (١٩٥٢م). الخصائص. تحقيق محمّد علي النجّار، القاهرة: المكتبة العلمية.
٢. ابن سهل الأندلسي، ابراهيم (٢٠٠٣م). الديوان. دراسة وتحقيق يسري عبدالغني عبدالله، ط ٣، بيروت: دار الكتب العلمية.
٣. ابن قتيبة (١٩٥٨م). الشعر والشعراء. تحقيق أحمد محمد شاكر، ط ٢، القاهرة: دار المعارف.
٤. ابن منظور، محمد بن مكرم (دون تا). لسان العرب. بيروت: دار صادر.
٥. الأخطل، غياث بن غوث (١٩٩٦م). شعر الأخطل. تحقيق فخرالدين قباوة، ط ٤، بيروت: دار الفكر المعاصر.
٦. أرسطوطاليس (١٩٧٣م). فن الشعر مع الترجمة العربية القديمة وشروح الفارابي وابن سينا وابن رشد. ترجمه عن اليونانية وشرحه وحقق نصوصه عبدالرحمن البدوي، ط ٢، بيروت: دار الثقافة.
٧. الجاحظ، عمرو بن بحر (١٩٤٨م). البيان والتبيين. تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، بيروت: دار الفكر.
٨. _____ (١٩٦٩م). الحيوان. تحقيق وشرح عبدالسلام هارون، ط ٣، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
٩. جاسم، حياة (١٩٨٦م). وحدة القصيدة في الشعر العربي حتى نهاية العصر العباسي. الرياض: دار العلوم.
١٠. الجرجاني، عبدالقاهر (٢٠٠١م). دلائل الإعجاز في علم المعاني. تصحيح محمد عبده التركيبي الشنقيطي، ط ٣، بيروت: دار المعرفة.
١١. جمعي، الأخضر (٢٠٠١م). اللفظ والمعنى في التكفير النقدي والبلاغي عند العرب. دمشق: منشورات اتحاد كتاب العرب.
١٢. الجوهري، إسماعيل بن حماد (١٩٩٠م). الصحاح. ط ٤، بيروت: دار العلم للملايين.
١٣. حاجي زادة، مهين (٢٠١٠م). البحث الدلالي عند ابن جني. مجلة اللغة العربية وآدابها، السنة ٦، العدد ١٠، ربيع وصيف.

١٤. الزرقاني، سيد مهدي (١٣٩١ش). بوطيقي كلاسيك. طهران: منشورات سخن للنشر والتوزيع.
١٥. شفيعي كدكني، محمد رضا (١٣٨٩ش). مفلس كيميا فروش. نقد وتحليل شعر انوري، ط ٤، طهران: منشورات سخن للنشر والتوزيع.
١٦. شميسا، سيروس (١٣٨٨ش). نقد أدبي. ط ٣، طهران: منشورات ميترا للنشر والتوزيع.
١٧. عبدالمطلب، عمر ادريس (٢٠٠٩م). حازم القرطاجني حياته ومنهجه البلاغي. الرياض: دار الجنادرية للنشر والتوزيع.
١٨. العسكري، أبوهلال حسن (٢٠١٣م). الصناعتين: الكتابة والشعر. تحقيق علي محمد البجاوي؛ وأبوالفضل ابراهيم، بيروت: المكتبة العصرية.
١٩. القرشي، محمد بن أبي الخطاب (دون تا). جمهرة أشعار العرب في الجاهلية والإسلام. حققه علي محمد البجاوي، القاهرة: منشورات نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع.
٢٠. قرطاجني حازم (١٩٦٦م). منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تقديم وتحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، تونس: دار الكتب الشرقية.
٢١. قدامة بن جعفر، أبوالفرج (دون تا). نقد الشعر. تحقيق عبدالمنعم الخفاجي، بيروت: دار الكتب العلمية.
٢٢. القيرواني، ابن رشيقي (١٩٨١م). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. حققه محمد محيي الدين عبدالحميد، ط ٥، بيروت: دار الجيل.
٢٣. الودرني، أحمد (٢٠٠٤م). قضية اللفظ والمعني ونظرية الشعر عند العرب من الأصول إلى القرن السابع للهجرة. بيروت: دار الغرب الإسلامي.